

الاكتفاء أو الاختصار

د. علي عبدالفتاح الحاج فرهود

إنَّ الكلامَ في وثاق المتكلم يُعبَّرُ عنه كيفما شاء ، وعلى وَفْقٍ ما يقتضيه المعنى وتوجُّبه الدلالةُ لا أنه في وثاق الضوابط النحوية الصارمة ، وعلى وَفْقٍ ما يقتضيه الشكل والصورة ، كما رُسِمَ هذا الأمرُ بموجب الدراسة النحوية المنطقية الجدلية.

وللجملة العربية الكاملة ^(١) دلالتها الخاصة التي سيقَّت لأجلها ، في حين أنَّ للجملة العربية (المكتفية) أو (المقتصرة) وهو ما اخترَّه اسمًا لها ، أو (الكلام) عند برجستراسر ، دلالتها الخاصة التي تنتظم من المعاني الإيحائية والظلالية ما لا يُمكن إدراكه أو استنباطه من هذه (الجملة) فيما لو زيد عليها لفظٌ أو أكثرُ بحجة الحذف فيها ، أو إكمالها في ضوء الرؤية المنطقية للجملة.

وقد تناول النحويون في مصنفاتهم مصطلحي (الاختصار) و(الاكتفاء). أما (الاختصار) فكانوا يوردونه قسيمًا للاختصار ، ولا سيما في باب ما يسمَّى بـ(حذف المفعول به) ، إذ دَرَج النحويون على القول: بأنه قد يُحذف المفعول به من الجملة اختصارًا ، أو اقتصارًا في الجملة الفعلية ذات الفعل المتعدي. وعندهم أنَّ المفعول المحذوف (اختصارًا) يُرادُ معنىً وتقديرًا ، والمحذوف (اقتصارًا) فإنه بما لا يُرادُ ولا يُقدَّر ^(٢) ، نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر/٩] ، بمعنى: هل يستوي من له علمٌ ومن لا علم له ، من غير قصدٍ إلى شيءٍ معلومٍ بعينه. ونحو اقتصار الجملة على لفظ الفعل الموصوف به فاعله ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَابْكِي ﴾

(١) أعني بها: ما تضمنت إسنادًا واستوفت رُكْنَي الإسناد. لا أنَّ الذي يُقابلها يسمى: (الجملة الناقصة).

(٢) ينظر: المفصل في علم العربية ، الزمخشري ٥٣-٥٤. والمقرَّب ١: ١١٤. وحاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، محمد بن علي الصبان ٢: ٣٤. وحاشية الخصري على ابن عقيل ، محمد الخصري ١: ١٦٢.

وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿ [النجم/٤٣-٤٤] ، بمعنى: هو الذي منه الإضحاك والإبكاء ، والإماتة والإحياء ، فقط له سبحانه^(٣) . وسوى ذلك من النصوص التي تكون مشحونة بالمعاني والدلالات الإيحائية ، مما لا يمكن استيعابه فيما لو كان النظم غير قائم على الاختصار .

وأما الاكتفاء فقد تناوله النحويون وهم يريدون به الاختصار على ما يُذكر من كلامٍ دونما حاجةٍ إلى سواه ، أو بعبارةٍ أخرى: إنَّ الاكتفاء ينفي التقدير ، ف((كلُّ مقتصرٍ عليه كافٍ))^(٤) . ومن مصاديق استعمالهم (الاكتفاء) بهذا المعنى قولُ سيويه: ((تقولُ: (ليت زيدا وهندا قائمةً). فاكْتَفَيْ بَخِرٍ (هندٍ) الذي هو (قائمةٌ) عن (قائمٍ) ، كما يُكْتَفَى بَخِرِ الأول عن الثاني في قولك: (زيدٌ منطلقٌ وعمرو)))^(٥) . وقولُ الفراء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ ﴾ [هود/٤١]: ((إنَّ شئتَ جعلتَ (بسم الله) ابتداءً مكتفياً بنفسه ، كقولِ القائل عند الذبيحة ، أو عند ابتداءِ المأكل وشبهه: (بسم الله)))^(٦) . ولعلَّ في قولِ الفراء: (مكتفياً بنفسه) دليلاً قاطعاً على أنَّ (الاكتفاء) ينفي التقدير ، أو القولُ بالتقدير .

ومن هذه الصور - على سبيل المثال - قولُ ابنِ فارس: ((ومن سَنَنِ العربِ الكَفُّ ، وهو أنْ تَكُفَّ عن ذِكْرِ الخبرِ اكتفاءً بما يدلُّ عليه الكلامُ ، كقوله^(٧) :

إِذَا قُلْتُ سِيرُوا نَحْوَ لَيْلَى لَعَلَّهَا جَرَى دُونَ لَيْلَى مَائِلُ الْقَرْنِ أَعْضَبُ
تَرَكَ خَيْرَ (لَعَلَّهَا)))^(٨) .

وقد أشار الدكتور أحمد عبد الستار الجواري إلى أثر (الاكتفاء) في اتساع الدلالة وعدم تضيقها بالتزام القول بـ(الحذف والتقدير) ، بقوله: ((وكثيراً ما يجري التعبيرُ القرآنيُّ على صورٍ من

(٣) ينظر: في البنية والدلالة ١٢٧-١٢٨ .

(٤) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦١ . وينظر: غرر الحكم ودرر الكلم ، عبد الواحد بن محمد التميمي ٣٩٨ .

(٥) الكتاب ١: ٢٨٤ (ط/ د. عبد السلام هارون) .

(٦) معاني القرآن ٢: ١٤ .

(٧) البيت مجهول القائل .

(٨) المزهر ١: ٣٣٨ . وينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تح: محمد

محيي الدين عبد الحميد ١: ٢٥٠ . ونحو المعاني ، د. أحمد عبد الستار الجواري ٦٧ .

الإيجاز والاكتفاء لا تُحيطُ بها قواعدُ النحو ، مثلُ الاكتفاء من الجملة الفعلية أو الاسمية بجارٍ ومجرورٍ ، كقوله تعالى... : ﴿ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ [أَحْسَنَتْمْ لَأَنْفُسِكُمْ] وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء/٧] ومثلُ الاكتفاء من جملة جواب الشرط بالحال ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة/٢٣٩] ، فقد اكتُفي من جملة الجواب بالحال من دونِ ذِكرِ الفعل وفاعله ومفعوله ، لأنه معلومٌ لا حاجةَ لذكره))^(٩) . ومن هذا الضرب من أساليب التعبير القرآني ((الاكتفاء بالخبر ، حيث لا حاجةَ لذكر المبتدأ ، في نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ [النساء/٨١]))^(١٠) .

فالسباقُ كفيلاً بسلامة (الاكتفاء) من جهةٍ . ولهذا (الاكتفاء) من المعاني الإيجائية والظلالية ، ومن الاتساع والمرونة ما ليس لغيره من سُبُل التعبير ، أو بما يرفضُ القولَ بالتقدير في مقابل القول بالحذف من جهةٍ أخرى .

إنَّ كلاً من (الاقتصار) و (الاكتفاء) - بمعنى قيام الكلام أو الجملة على نظمٍ لا يُحتاج فيه - لدلالته الخاصة المقصودة - إلى القول بالحذف ولا إلى تقدير مزعومٍ يُطيحُ بتلك الدلالة الخاصة ويمسخها - يشير إلى أنَّ التركيب ، أو العبارة ، أو الكلام ، أو الجملة قد تقومُ على كلمةٍ واحدةٍ يُقتصرُ عليها مستقلةً بنفسها ، أو غير مستقلةً بنفسها ، بل تؤدي فكرةً تامةً يحسنُ السكوتُ عليها بضميمة السياق ، وظرفِ الكلام فتسمى جملةً اكتفائيةً أو اقتصاريةً ، أو جملةً مكتفيةً أو مقتصرةً مستقلةً بنفسها أو سياقيةً ، لا تحتاجُ إلى القول بـ(الحذف والتقدير) القائمين على أسسٍ منطقيةٍ مؤصدةٍ تعدلُ بالمعنى المراد ، أو المتوخى بالنظم وصورته إلى ما يُخالفه ويُقيده .

لقد صرح جماعة من اللغويين والنحويين بأنَّ الجملة العربية قد تقومُ على كلمةٍ واحدةٍ ، وهو قولٌ جديرٌ بالالتزام - وسيأتي مصداقه ، إن شاء الله ، في قابل الفصل - ينأى بنا عن التمسك بالقول بـ(الحذف والتقدير) ، فثمة استعمالاتٌ لغويةٌ تقتضي أن يقومَ الكلامُ ، أو الجملةُ على جزءٍ (كلمةٍ) في استعمالٍ بعينه ، وعلى أكثر من (كلمةٍ) في استعمالٍ آخر بعينه أيضاً ، على أن يكون السياق وظروفُ المقال كفيلين بهذا الاكتفاء في معظم صورهِ .

(٩) نحو القرآن ٤٨ .

(١٠) نحو المعاني ٦٧ .

فالجملة التي قد تقوم على كلمة واحدة فقط - وهي من الغلبة بمكان قد ضمت الكلام والتركيب - مثل: (صه) ، و (تعال) ، و (الصدق) ، والتي قد تقوم على أكثر من كلمة ، ولكنها في عداد الكلمة الواحدة ، نحو: (بسم الله) ، و (أهلاً وسهلاً) ، و (ضرباً المسيء) ، قد أدت فكرة تامة كاملة حسن السكوت عليها ، وبالتالي فهي قد اكتفت بما هي عليه ، ولم تحتج إلى تقديرٍ لكلماتٍ مزعومة تحط بروعة النظم.

والجملة المكتفية التي تقوم على كلمة أو أكثر ، ولكنها لا تستقل بنفسها ، أي: لا تؤدى فكرة تامة يحسن السكوت عليها ، وهي بمعزل عن سياقها وسوابقها ولواحقها ، وظروف القول التي وردت فيها ، تكون لغواً من القول فيما لو قطعت عن سياقها وبُترت عن سوابقها ولواحقها ، نحو (رسوله) في قوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة/٣] ، ونحو: (خيراً) في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ [النحل/٣٠]. فكلٌّ من (رسوله) و (خيراً) جملة مكتفية - وسيأتي بيان ذلك ، إن شاء الله ، في قابل هذا الفصل - فيها من المعاني والدلالات الإيحائية الباطنية ما لا يمكن تحقُّقه وإفادته فيما لو كان كلٌّ منهما على صورة الجملة (غير المكتفية) ، أو على الصورة المتخيلة التي زعمها القائلون بالحذف والتقدير ، ((فكلمة (خيراً) هي في الحقيقة جملة في سياقها ، لأنها تُشير إلى معنى يحسن السكوت عليه))^(١١). وسيأتي بيان ذلك. إلا أن كلاً منهما ، أي: (رسوله) و (خيراً) وما شابههما من الجمل المكتفية السياقية لا يستقل بنفسه ليكون كلاماً تاماً ذا فائدة يحسن السكوت عليه ، فلا معنى لـ(رسوله) ، ولا لـ(خيراً) ، أي: أنهما بلا معنى إن كانا مستقلين ، وأنهما لفي غير ما سيقا لأجله فيما لو قُدِّرَ معهما (مُحذوفٌ مزعوم). والله أعلم.

س/ عرّف بالاكْتِفَاءِ النَحْوِيّ ، في ضوء ما درست. ومثّل لذلك بما ورد في النصّ القرآنيّ ؟

(١١) في نحو اللغة وتراكيبها ١٤١.